

التداولية والحجاج

التداولية في فلسفة التعليم السوي

مدخل: يبدو لأول وهلة استنساخ أحكام استباقية بشأن التواصل البيئي في المجتمع البشري قائم على المبادلات اللغوية ، لكن الأحكام التي يسعنا استخلاصها من مناهجنا ومقرراتنا الثقافية لا يمكننا تقصي أثرها وفعاليتها إلا بالاستئناس بأصول الخطاب التداولي، الذي نهجه عبر من خلال مراساتنا المتعددة، إذ نعتاد لمرسخ أساليب وأشكال خطاب نعدها علمية خالصة. لأجل ذلك انعقدت الصلة الوظيفية بين الخطاب التداولي وبين التعليم.

01/ التداولية وأثرها على المعلم والمتعلم:

أ — أهداف التداولية الديدانكتيكية: لكل نشاط تعليمي تعليمي أهداف محكمة، ولا ريب أن بلوغ الأهداف في الممارسات البيداغوجية الموجهة لمراس تربوي تعليمي إنما أريد لها إحكام العلاقة الوظيفية الماهوية بين المعلم والمتعلم. وكذا من جهة الآثار التحصيلية لنشاط التعليم، مشار إليه على نحو دلالي، نستلهم مقاصده من متن الخطاب البيداغوجي. وذاك مقصد ف. فرانسوا حين حاول التثبت من اختبارات التعلم لدى الأطفال. إذ تبين له أن نمط الخطاب البيداغوجي لا ينصب على إكساب الأطفال عادات تعليمية من جهة ما هي آثار ناشئة عن الممارسات التعليمية، ولكن أيضا بمقدار ما تؤثر في تقويم وتوجيه سلوكياتهم وتعزيز مكتسباتهم اللغوية.

ب — مقاربات الآداءات الديدانكتيكية الخطائية: كذا عرض 'ريان جونز' في بعض دراساته الميدانية إلى

مقارنة آداءات المعلم والمتعلم على نحو سواء لأجل فهم ثم مقارنة الفعل التداولي لتعيين ماهيته القيمية والديدانكتيكية، ثم تمثل الدور الحاسم في الفعل التداولي ما إن كان للضمنيات التي يعرف من خلالها المعلم متعلميه ببعض المعارف والمكتسبات، أم أن هدف الهداف سوف ينصب على تتبع الأنشطة السلوكية للمتعلمين بغرض تعزيز آثارها الناجحة وتقويمها لبلوغ مقاصد النشاط التداولي. فحين يكون الملفوظ صادر عن المتعلم غالبا ما يكون معززا للحجاج والشرح ويؤول إلى بلوغ الوضوح، خلاف صدور الملفوظ من جهة الأستاذ إذ يحجب عنم المتعلم المحاجة ومجارة نسق الخطاب... وقد اقترح لاغواردا معايير لتحليل الخطاب البيداغوجي، ومم ضمن مؤشرات الخطاب الاستعراضي (تمش استنتاجي شديد الاتسام بضمنيات القول) إذ يستأنس بمسانيد

موصولة بالأنا المخاطبة، مركز الفعل الخطابي للمعلم، يحجب فيه الحوار، يعرض فيه الأستاذ معرفاً بأثر المكتسبات القبلية¹. والواقع أن التعليم الوجيه والمثمر لا يهمل واقع الممارسات اللغوية، من حيث أنها تعبر عن ترسخ أنماط التعبير شفوية كانت أم كتابية، ومن ثمة فإن الخطاب اللغوي متنسق مع سياقاته الثقافية والاجتماعية والتربوية، في إطار خصوصية البيئة التي تحتويها. وبلا لا ريب أن التداولية الخطابية اللغوية تراكمية وتترع إلى الاستمرارية من جهة ما هي خاضعة لنمط التكوين القاعدي المنهج، الذي يراعي خصوصيات النقلات التعليمية، وكذا السلوكيات المقترنة بها، دون إغفال لما يمكن أن يستجد على صعيد التحويلات الوثباتية، التي شأنها أن تصحح مسارات وحدود الممارسات الخطابية موصولة بتنظيراتها العقلانية المتسقة. وقد ظل " علم المواضيع السياقي يهتم بتطوير الكفاءات التواصلية، ومن ثمة فإن من مهماته القيام بعمل جسيم يتصل بالظواهر التلفظية أو الإشارية، التي يطرح التحكم فيها صعوبات حقيقية لدى الأطفال وحتى عند البالغين عموماً. وعمل يتعلق بنسبية الدلالة وبالاستراتيجيات الخطابية، الاستدلالات والضمني والمضمرات. كما يتعلق عمل هذا العلم برهانات التواصل والمواضع الاجتماعية والتفاعل.

02/ التداولية وتعليم اللغات: " وفيما يتصل بتعليم اللغات المسمّاة 'أجنبية' واكتسابها، يمدّنا علم المواضيع السياقي بتوضيح للظواهر الموجودة بين الثقافات وللمواضع الاجتماعية، ولتنسيب التداخلات (التي ليست بالضرورة أخطاء)، فضلاً عما رأيناه مما هو أحرى بأن يكون ضرورياً فيما يتعلق بكفاءات لغة أخرى. وهذا يؤدي بالتوازي مع ذلك إلى تصور جديد للترجمة. إن قابلية الترجمة أمر تنسبه المعايير التي بينت التداولية أهميتها في إنتاج الدلالة"⁽²⁾.

03/ التداولية الموضوعية: "Pragmatique Topique": أسست انطلاقاً من نظرية المواضيع... وهي تطور مفهوماً اجتماعياً خطابياً للنشاط اللساني، الذي يفهم على أنه مكون للحس المشترك، يوضح تمييزاً أولياً وجهات نظرها: إن مبدأ تشارك المعنى يميز الموضوعية عن التكوين الاجتماعي المعطى. داخل هذه الموضوعية تحقق مؤسسات المعنى، من خلال مجتمعات المعنى التي تبررها قواعد الخطاب. يقوم كل مجتمع للمعنى بإنتاج وبناء الحس المشترك الخاص به، من خلال

(1) - فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر، صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1،

2007، ص ص 187 - 188.

(2) - المرجع نفسه، ص 192.

ديناميكية خاصة به، ووفقاً لأنماط التباين التي يمكن التنبؤ بها ووصفها... تعتمد هذه النمذجة أيضاً على فرضية الكفاءة الموضوعية للذوات الفاعلة. وتهتم منظورات التداولية الموضوعية خاصة بمجال تحليل الخطاب، ممنا يساعد على توضيح — بل وتجديد — بعض المفاهيم⁽³⁾. وترتكز التداولية الموضوعية على منظومة معايير وقيم تحقق المطابقة والملاءمة المعرفية والبراغماتية على حد سواء. وبالتالي فإن التداولية بمعناها الإدراكي يجب أن تلتزم حدود القواعد التي أنشئت لأجلها بينها قاعدة الملاءمة. " يشير هذا المصطلح إلى المفهوم الرئيس لنظرية الملاءمة لدى "سبيربر — ويلسون" التي تفهم بوصفها نظرية لتفسير الملفوظات من منظور سيطور بوساطة التداولية الإدراكية، ويمكن صياغة قاعدة الملاءمة على النحو التالي: كلما زاد الأثر الإدراكي للملفوظ كان الملفوظ المعني ملائماً. على العكس من ذلك كلما زاد الجهد الإدراكي الذي أنتجه المرسل إليه لتفسير الملفوظ قلت ملاءمة الملفوظ الصادر عن المتكلم"⁽⁴⁾. والملاءمة هاهنا نافية ليوتوبية الخطاب، لأنها لا تحقق الانسجام بين المتخاطبين. كذا يجب نقل الأساليب التداولية من النمذجة العقلانية إلى الممارسة الإمبريقية المحكمة. " إن الملاءمة ليست فقط مبدأ يحكم التواصل الإنساني، فالمتكلمون حسب ما أوضحتها — على سبيل المثال — دراسة جيورا (1997- 1998) Giora لا يتقيدون فقط بالبحث عن الملاءمة، فالاعتبارات الخاصة بالانسجام إضافة إلى هذا تحكم التواصل وتلعب دوراً رئيسياً في بناء الخطاب وفهمه... إن الانسجام مصطلح يشير إلى مظاهر تنظيمية مفاهيمية للخطاب خاصة بمستوى ما فوق الجملة، فانسجام نص أو ما أو خطاب يعتمد — على الأقل في جانب منه — على قدرة المتكلم على امتلاك وحدة موضوعاتية"⁽⁵⁾.

04/ نظرية التواصل: التواصل غير الإتصال. هو ثنائي يستوجب فعلاً ورد فعل، ومن دونه تنقطع

عنا سبل التعارف وتنمية مكتسباتنا وقدراتنا المعرفية والسلوكية والثقافية. والتواصل في تعريف

(3) - جوليان لونجي: قاموس التداولية، تر، لطفي السيد منصور، دار الرافدين، بغداد، العراق، ط1، 2020، ص ص 214 - 215.

(4) - المرجع نفسه، ص 230.

(5) - تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، دراسات وبحوث مختارة، تر، حافظ إسماعيل علوي وآخرون، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص 67.

كلود زيلتمان: " هو إشراك شخص (أو هيئة Organisme) موضع في فترة ما في نقطة معينة في تجارب منشطة لمحيط شخص آخر أو نسق آخر موضع في فترة أخرى ومكان آخر، عن طريق استعمال عناصر المعرفة المشتركة بينهما (تجربة عوضية)"⁽⁶⁾. لا ريب أن الإنسان يجوز على مؤهلات وقدرات يتعرف بواسطتها على عالمه الذاتي مثلما يجوز على قدرة التواصل المجتمعي ناهلا من أنساقه وبنياته أصول المشاركة التواصلية الهادفة، محققا بذلك نماء وعي وثاقف.

خاتمة: بين إلى حد يكاد يكون تبديها أن الخطاب التداولي عرفاني، نمائي، تقدمي، يناى بالعقل عن المؤلف لسذاجته، يحقق إمريقيا مقاصد العقل، تبعا لمقارباتها العقلانية والمجتمعية، في إطار مقتضيات بيئية تؤدي إلى مزيد من الفهم والإيضاح لمعلم التواصل البناء وفق ما يستوجه منطق العلم من دون مناقضة لمقتضيات الواقع البراغمية.

(6) - أ. مولز - ك. زيلتمان - ك. أوريكيوني: في التداولية المعاصرة والتواصل، تر، محمد نظيف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص07.